بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحج مكية

غير ست آيات وهي هذان خصمان إلى قوله: ﴿إلى صراط الحميد﴾[1] وهي ثمان وسبعون آية.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾.

الزلزلة شدّة التحريك والإزعاج، وأن يضاعف زليل الأشياء عن مقارها ومراكزها، ولا تخلو ﴿الساعة﴾ من أن تكون على تقدير الفاعلة لها كانها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي، فتكون الزلزلة مصدرًا مضافًا إلى فاعله أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع في الظرف، وإجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى: ﴿بل مكر الليل﴾ والنهار وهي الزلزلة المذكورة في قوله: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾[2] واختلف في وقتها، فعن الحسن أنها تكون يوم القيامة وعن علقمة والشعبي عند طلوع الشمس من مغربها، أمر بني آدم بالتقوى، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم، ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردى بلباس التقوى الذي لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلا أن يتردوا به، وروي أنّ هاتين الآيتين نزلتا ليلاً في غزوة بني المصطلق، فقرأهما رسول الله ﷺ فلم ير أكثر باكيًا من تلك الليلة. فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب، ولم يضربوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدرًا وكانوا من بين حزين وباك ومفكر[3].

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾.

﴿يوم ترونها﴾ منصوب بـ ﴿تذهل﴾ والضمير للزلزلة. وقرئ: ﴿تذهل كل مرضعة﴾ على البناء للمفعول وتذهل كل مرضعة أي: تذهلها الزلزلة والذهول الذهاب عن الأمر مع دهشة.

فإن قُلْتَ: لم قيل ﴿مرضعة﴾ دون مرضع؟ **قُلْتُ:** المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به[4] فقيل: مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه، وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة ﴿عما أرضعت﴾ عن إرضاعها، أو عن الذي أرضعته وهو الطفل وعن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام، قرئ ﴿وترى﴾ بالضم من أريتك قائمًا، أو رؤيتك قائمًا و﴿الناس﴾ منصوب ومرفوع والنصب ظاهر، ومن رفع جعل الناس اسم ترى وأنثه على تاويل الجماعة، وقرئ سكرى وبسكرى وهو نظير جوعى وعطشى في جوعان وعطشان وسكارى وبكسارى، نحو كسالى وعجالى وعن الأعمش سكرى وبسكرى بالضم، وهو غريب والمعنى: وتراهم سكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق، ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم، وطير تمييزهم وردّهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله. وتمييزه وقيل: وتراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى[5] من الشراب.

فإن قُلْتَ: لم قيل أوّلاً ترون، ثم قيل: ترى على الإفراد؟ **قُلْتُ:** لأنّ الرؤية أوّلاً علقت بالزلزلة، فجعل الناس جميعًا رائين لها وهي معلقة أخيرًا بكون الناس على حال السكر، فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائيًا لسائرهم.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾.

قيل: نزلت في النضر بن الحرث، وكان جدلاً يقول: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء من بلي وصار ترابًا، وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز من الصفات والأفعال، ولا يرجع إلى علم ولا يعضّ فيه بضرس قاطع وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة فهو يخبط خبط عشواء غير فارق بين الحق

---

(1) سورة الحج، الآية: 24.

(2) سورة الزلزلة، الآية: 1.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحج، (الحديث: 3169)، وأخرجه الحاكم في المستدرك، 4/567.

(4) قال أحمد: والفرق بينهما أن وروده على النسب لا يلاحظ فيه حدوث الصفة المشتق منها، لكن مقتضاه أنه موصوف بها وعلى غير النسب يلاحظ حدوث الفعل، وخروج الصفة عليه، وكذلك هو في الآية لقوله: ﴿عما أرضعت﴾ فأخرج الصفة على الفعل وألحقه التاء.

(5) قال أحمد: والعلماء يقولون: إن من أدلة المجاز صدق نقيضه كقوله: زيد حمار إذاً وصفته بالبلادة، ثم يصدق أن تقول وما هو = بحمار فتنفي عنه الحقيقة، فكذلك الآية بعد أن أثبت السكر المجازي نفي الحقيقي أبلغ نفي مؤكد بالباء، والسر في تأكيده التنبيه على أنّ هذا السكر الذي هو بهم في تلك الحالة ليس من المعهود في شيء، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله، والاستدراك بقوله: ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ راجع إلى قوله: ﴿وما هم بسكارى﴾ وكأنه تعليل لإثبات السكر المجازي، كأنه قيل: إذا لم يكونوا سكارى من الخمر، وهو السكر المعهود فما هذا السكر الغريب؟ وما سببه؟ فقال: سببه شدّة عذاب الله تعالى. ونقل عن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه أنه قال: هو الوقت الذي يقول كل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيه: نفسي نفسي.

والباطل، ﴿ويتبع﴾ في تلك خطوات ﴿كل شيطان﴾ عات علم من حاله وظهر، وتبين أنه من جعله وليًا له لم تثمر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار، وما أرى رؤساء أهل الأهواء والبدع والحشوة المتلقبين بالإمامة في دين الله إلا داخلين تحت كل هذا دخولاً أوليًا بل هم أشدّ الشياطين إضلالاً، وأقطعهم لطريق الحق حيث دوّنوا الضلال تدوينًا ولقنوه أشياعهم تلقينًا، وكانهم ساطوه بلحومهم ودمائهم وإياهم عني من قال:

ويا رب مقفو الخطا بين قومه ... طريق نجاة عندهم مستو نهج
ولو قرؤا في اللوح ما خط فيه من ... بيان اعوجاج في طريقته عجوا

اللهم ثبتنا على المعتقد الصحيح الذي رضيته لملائكتك في سمٰواتك، وأنبيائك في أرضك وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾.

والكتبة عليه مثل أي: كانما كتب إضلال من يتولاه عليه ورقم به لظهور ذلك في حاله.

وقرئ ﴿أنه﴾ و﴿فأنه﴾ بالفتح والكسر فمن فتح فلأن الأول فاعل كتب، والثاني: عطف عليه ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو كانما كتب عليه هذا الكلام كما تقول: كتبت إن الله هو الغني الحميد، أو على تقدير: قيل أو على أن كتب فيه معنى القول.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾.

قرأ الحسن من البعث بالتحريك ونظيره الجلب، والطرد في الجلب، والطرد كانه قيل: إن ارتبتم في البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم، والعلقة قطعة الدم الجامدة والمضغة اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ، والمخلقة المسواة الملساء من النقصان والعيب يقال: خلق السواك والعود إذا سواه، وملسه من قولهم صخرة خلقاء إذا كانت ملساة كانّ الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم، وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم، ونقصانهم وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة ﴿لنبين لكم﴾ بهذا التدريج قدرتنا، وحكمتنا وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً ثم من نطفة ثانيًا، ولا تناسب بين الماء والتراب وقدر على أن يجعل النطفة علقة، وبينهما تباين ظاهر ثم يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظامًا قدر على إعادة ما أبداه بل هذا أدخل في القدرة من تلك، وأهون في القياس وورود الفعل غير معدى إلى المبين إعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته، وعلمه ما لا يكتنهه الذكر ولا يحيط به الوصف، وقرأ ابن أبي عبلة ليبين لكم ويقرّ بالياء، وقرئ ونقرّ ونخرجكم بالنون والنصب، ويقرّ ويخرجكم ويقرّ ويخرجكم بالنصب والرفع، وعن يعقوب نقرّ بالنون وضم القاف من قرّ الماء إذا صبه، فالقراءة بالرفع إخبار بانه يقرّ ﴿في الأرحام ما يشاء﴾ أن يقرّه من ذلك ﴿إلى أجل مسمى﴾ وهو وقت الوضع آخر ستة أشهر أو تسعة أو سنتين أو أربع أو كما شاء وقدر وما لم يشأ إقراره مجته الأرحام، أو أسقطته والقراءة بالنصب تعليل معطوف على تعليل ومعناه خلقناكم مدرجين هذا التدريج لغرضين أحدهما أن نبين قدرتنا، والناس: أن نقرّ في الأرحام من نقرّ حتى يولدوا وينشؤا ويبلغوا حد التكليف فاكلفهم، ويعضد هذه القراءة قوله: ﴿ثم لتبلغوا أشدكم﴾ وحده لأنّ الغرض الدلالة على الجنس، ويحتمل نخرج كل واحد منكم طفلاً، الأشد كمال القوّة والعقل والتمييز وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدة، والقتود والأباطيل وغير ذلك وكانها شدّة في غير شيء واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع، وقرئ ومنكم من يتوفى أي: يتوفاه الله ﴿أرذل العمر﴾ الهرم والخرف حتى يعود كهيئته الأولى في أوان طفولته ضعيف البنية سخيف العقل قليل الفهم، بين أنه كما قدر على أن يرقيه في درجات الزيادة حتى يبلغه حدّ التمام، فهو قادر على أن يحطه حتى ينتهي به إلى الحالة السفلى ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا﴾ أي: ليصير نساء بحيث إذا كسب علمًا في شيء لم ينشب أن ينساه، ويزل عنه علمه حتى يسأل عنه من ساعته يقول لك: من هذا فتقول: فلان فما يلبث لحظة إلا سألك عنه، وقرأ أبو عمر والعمر بسكون الميم الهامدة الميتة اليابسة وهذه دلالة ثانية على البعث، ولظهورها وكونها مشاهدة معاينة كررها الله في كتابه ﴿اهتزت وربت﴾ تحركت بالنبات وانتفخت، وقرئ ربأت أي: ارتفعت، البهيج الحسن الساتر للناظر إليه، أي: ذلك الذي ذكرنا من خلق بني آدم وإحياء الأرض مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحكم، واللطائف حاصل بهذا، وهو السبب في حصوله، ولولاه لم يتصور كونه وهو ﴿أن الله هو الحق﴾ أي: الثابت الموجود وأنه قادر على إحياء الموتى، وعلى كل مقدور وأنه حكيم لا يخلف ميعاده، وقد وعد الساعة والبعث فلا بد أن يفي بما وعد.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾.

عن ابن عباس أنه أبو جهل ابن هشام، وقيل: كرر كما كررت سائر الأقاصيص وقيل: الأوّل في المقلدين وهذا في المقلدين. والمراد بالعلم العلم الضروري وبالهدى الاستدلال والنظر لأنه يهدي إلى المعرفة، وبالكتاب المنير الوحي أي:

يجادل بظن وتخمين لا بأحد هذه الثلاثة.

ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾.

وثني العطف عبارة عن الكبر والخيلاء كتصعير الخدّ وليّ الجيد، وقيل: عن الإعراض عن الذكر. وعن الحسن: ثاني عطفه بفتح العين، أي: مانع تعطفه ﴿ليضل﴾ تعليل للمجادلة، قرئ بضم الياء وفتحها.

فإن قُلْتَ: ما كان غرضه من جداله الضلال ﴿عن سبيل الله﴾ فكيف علل به، وما كان أيضًا مهتديًا حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال؟**قُلْتُ:** لما أدّى جداله إلى الضلال جعل كأنه غرضه، ولما كان الهدى معرضًا له فتركه وأعرض عنه، وأقبل على الجدال بالباطل جعل كالخارج من الهدى إلى الضلال وخزيه ما أصابه يوم بدر من الصغار، والقتل والسبب فيما مني به من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾.

هو ما قدمت يداه، وعدل الله في معاقبته الفجار، وإثابته الصالحين.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾.

﴿على حرف﴾ على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون، وطمأنينة كالذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحس بظفر وغنيمة قرّ واطمأن وإلا فرّ وطار على وجهه، قالوا: نزلت في أعاريب قدموا المدينة وكان أحدهم: إذا صح بدنه، ونتجت فرسه مهرًا سريًا وولدت امرأته غلامًا سويًا، وكثرت ماله وماشيته قال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيرًا، واطمأن وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلاّ شرًا، وانقلب. وعن أبي سعيد الخدري أن رجلاً من اليهود أسلم، فأصابته مصائب فتشاءم بالإسلام فأتى النبي ﷺ فقال: أقلني، فقال: «إن الإسلام لا يقال» فنزلت[1]، المصاب بالمحنة بترك التسليم لقضاء الله والخروج إلى ما يسخط الله جامع على نفسه محنتين إحداهما ذهاب ما أصيب به، والثانية ذهاب ثواب الصابرين فهو خسران الدارين، وقرئ خاسر الدنيا والآخرة بالنصب والرفع فالنصب على الحال والرفع على الفاعلية، ووضع الظاهر موضع الضمير وهو وجه حسن أو على أنه خبر مبتدأ محذوف.

يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾.

استعير ﴿الضلال البعيد﴾ من ضلال من أبعد في التيه ضالاً فطالت وبعدت مسافة ضلالته.

فإن قُلْتَ: الضرر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين، وهذا تناقض!**قُلْتُ:** إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم وذلك أن الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جماداً لا يملك ضراً، ولا نفعاً وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه يستنفع به حين يستشفع به، ثم قال: يوم القيامة يقول: هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام، ودخوله النار بعبادتها ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها لها.

يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾.

﴿لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير﴾ أو كرّر يدعو كأنه قال: يدعو من دون الله ما لا يضره، وما لا ينفعه ثم قال: لمن ضره بكونه معبودًا أقرب من نفعه بكونه شفيعًا لبئس المولى وفي حرف عبد الله من ضره بغير لام، المولى الناصر، والعشير: الصاحب كقوله: ﴿فبئس القرين﴾.

مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾.

هذا كلام قد دخله اختصار والمعنى أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة فمن كان يظنّ من حاسديه، وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك ويطمع فيه، ويغيظه أنه يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيظه بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مدّ حبلاً إلى سماء بيته، فاختنق فلينظر وليصوّر في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه، وسمى الاختناق قطعاً لأنّ المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه، ومنه قيل: للبهر القطع، وسمى فعله كيداً؛ لأنه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره، أو على سبيل الاستهزاء؛ لأنه لم يكد به محسوده إنما كاد به نفسه، والمراد ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه، وقيل: فليمدد بحبل إلى السماء المظلة وليصعد عليه فليقطع الوحي أن ينزل عليه، وقيل: كان قوم من المسلمين لشدّة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطؤن ما وعد الله رسوله من النصر، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون أن لا يثبت أمره فنزلت.

وقد فسّر النصر بالرزق وقيل: معناه أن الأرزاق بيد الله لا تنال إلا بمشيئته ولا بد للعبد من الرضا بقسمته، فمن ظنّ أن الله غير رازقه وليس به صبر واستسلام فليبلغ غاية الجزع، وهو الاختناق فإنّ ذلك لا يقلب القسمة ولا يردّه مرزوقاً، أي: ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله.

(1) الواحدي في أسباب النزول، ص 173.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾.

﴿آيات بينات و﴾ لـ ﴿إنّ الله يهدي﴾ به الذين يعلم أنهم يؤمنون أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى أنزله كذلك مبيناً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾.

الفصل مطلق يحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعاً فلا يجازيهم جزاء واحداً بغير تفاوت، ولا يجمعهم في موطن واحد وقيل: الأديان خمسة: أربعة للشيطان وواحد للرحمن جعل الصابئون مع النصارى لأنهم نوع منهم، وقيل: يفصل بينهم يقضي بينهم أي: بين المؤمنين والكافرين وأدخلت أنّ على كل واحد من جزأي الجملة لزيادة التوكيد ونحوه قول جرير:

إنّ الخليفة أن الله سربله ... سربال ملك به ترجى الخواتيم

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾.

سميت مطاوعتها له فيما يحدث فيها من أفعاله ويجريها عليه من تدبيره وتسخيره لها سجوداً له، تشبيهاً لمطاوعتها بإدخال أفعال المكلف في باب الطاعة والانقياد، وهو السجود الذي كل خضوع دونه.

فإن قُلْتَ: فما تصنع بقوله: ﴿وكثير من الناس﴾ وبما فيه من الاعتراضين أحدهما: أنّ السجود على المعنى الذي فسرته به لا يسجده بعض الناس دون بعض والثاني أنّ السجود قد أسند على سبيل العموم إلى من في الأرض من الإنس والجنّ أوّلاً فإسناده إلى كثير منهم آخرًا مناقضة!

قُلْتُ: لا أنظم كثيرًا في المفردات المتناسقة الداخلة تحت حكم الفعل، وإنما أرفعه بفعل مضمر يدل عليه قوله: يسجد أي: ويسجد كثير من الناس سجود طاعة وعبادة، ولم أقل أفسر يسجد الذي هو ظاهر بمعنى الطاعة، والعبادة في حق هؤلاء؛ لأنّ اللفظ الواحد لا يصحّ استعماله في حالة واحدة على معنيين مختلفين، أو أرفعه على الابتداء والخبر محذوف وهو مثاب لأنّ خبر مقابله يدل عليه، وهو قوله: ﴿حق عليه العذاب﴾ ويجوز أن يجعل من الناس خبراً له أي: من الناس الذين هم الناس على الحقيقة، وهم الصالحون والمتقون ويجوز أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب، فيعطف كثير على كثير ثم يخبر عنهم بحقّ عليهم العذاب، كأنه قيل: وكثير وكثير من الناس حقّ عليهم العذاب، وقرئ حق بالضم، وقرئ حقًا أي: حقّ عليهم العذاب حقًا، ومن أهانه الله بأن كتب عليه الشقاوة لما سبق في علمه من كفره، أو فسقه فقد بقي مهانًا لن تجد له مكرمًا، وقرئ مكرم بفتح الراء بمعنى: الإكرام إنه ﴿يفعل ما يشاء﴾ من الإكرام والإهانة ولا يشاء من ذلك إلا ما يقتضيه عمل العاملين، واعتقاد المعتقدين.

۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾.

الخصم صفة وصف بها الفوج، أو الفريق فكأنه قيل: هذان فوجان، أو فريقان مختصمان، وقوله: هذان للفظ واختصموا للمعنى كقوله: ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا ولو قيل: هؤلاء خصمان أو اختصما جاز يراد المؤمنون، والكافرون قال: ابن عباس رجع إلى أهل الأديان الستة ﴿في ربهم﴾ أي: في دينه وصفاته، وروي أنّ أهل الكتاب قالوا: للمؤمنين نحن أحق بالله، وأقدم منكم كتاباً، ونبينا قبل نبيكم وقال: المؤمنون نحن أحق بالله آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا، ثم تركتموه وكفرتم به حسداً فهذه خصومتهم في ربهم ﴿فالذين كفروا﴾ هو فصل الخصومة المعنى بقوله تعالى: ﴿إنّ الله يفصل بينهم يوم القيامة﴾ وفي رواية عن الكسائي خصمان بالكسر.

وقرئ قطعت بالتخفيف كأنّ الله تعالى يقدّر لهم نيرانًا على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة، ويجوز أن تظاهر على كل واحد منهم تلك النيران كالثياب المظاهرة على اللابس بعضها فوق بعض، ونحوه سرابيلهم من قطران ﴿الحميم﴾ الماء الحار عن ابن عباس رضي الله عنه: لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها.

يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾.

﴿يصهر﴾ يذاب وعن الحسن بتشديد الهاء للمبالغة أي: إذا صبّ الحميم على رؤوسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر فيذيب أحشاءهم، وأمعاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله: ﴿وسقوا ماء حميمًا فقطع أمعاءهم﴾[1].

وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾.

والمقامع: «السياط. في الحديث: لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها»[2].

---

(1) سورة محمد، الآية: 15.

(2) أحمد في المسند 3/29، وأبو يعلى في المسند، (الحديث رقم: 1388).

كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾.

وقرأ الأعمش ردّوا فيها والإعادة والردّ لا يكون إلاّ بعد الخروج فالمعنى: كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها، ومعنى الخروج: ما يروى عن الحسن أنّ النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع، فهووا فيها سبعين خريفاً **﴿و﴾** قيل لهم: **﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾** والحريق الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾.

﴿يحلون﴾ عن ابن عباس: من حليت المرأة فهي حال **﴿ولؤلؤا﴾** بالنصب على ويؤتون لؤلؤًا كقوله: وحورًا عينًا، ولؤلؤًا بقلب الهمزة الثانية واوًا ولوليًا بقلبهما واوين، ثم تقلب الثانية ياء كآدل ولول كآدل فيمن جرّ ولؤلؤ ولياليا بقلبهما ياءين عن ابن عباس.

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾.

وهداهم الله وألهمهم أن يقولوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وهداهم إلى طريق الجنة يقال: فلان يحسن إلى الفقراء وينعش المضطهدين لايراد حال ولا استقبال، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه والنعشة في جميع أزمنته وأوقاته، ومنه قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾.

﴿ويصدّون عن سبيل الله﴾ أي: الصدود منهم مستمرّ دائم **﴿للناس﴾** أي: الذين يقع عليهم اسم الناس من غير فرق بين حاضر وباد وتانئ وطارئ ومكي وآفاقي، وقد استشهد به أصحاب أبي حنيفة قائلين إنّ المراد بالمسجد الحرام مكة على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها، وعند الشافعي لا يمتنع ذلك وقد حاور إسحٰق بن راهويه فاحتجّ بقوله: **﴿الذين أخرجوا من ديارهم﴾**[1] قال: أنسب الديار إلى مالكيها أو غير مالكيها واشترى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه دار السجن من مالكيه، أو غير مالكيه **﴿سواء﴾** بالنصب قراءة حفص والباقون على الرفع ووجه النصب أنه ثاني مفعولي جعلناه أي: جعلناه مستوياً **﴿العاكف فيه والباد﴾**، وفي القراءة بالرفع الجملة مفعول ثان الإلحاد العدول عن القصد، وأصله إلحاد الحافر وقوله: **﴿بإلحاد بظلم﴾** حالان مترادفتان، ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال: ومن يرد فيه مرادًا ما عادلاً عن القصد ظالمًا، **﴿نذقه من عذاب أليم﴾** يعني: أنّ الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهمّ به ويقصده وقيل: الإلحاد في الحرم منع الناس عن عمارته وعن سعيد بن جبير الاحتكار، وعن عطاء قول: الرجل في المبايعة لا والله وبلى والله وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحل، والآخر في الحرم فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحلّ فقيل له: فقال: كنا نحدث أنّ من الإلحاد فيه أن يقول: الرجل لا والله وبلى والله[2] وقرئ يرد بفتح الياء من الورود ومعناه: من أتى فيه بإلحاد ظالمًا، وعن الحسن ومن يرد إلحاده بظلم أراد إلحادًا فيه فأضافه على الاتساع في الظرف كمكر الليل، ومعناه أن يرد أن يلحد فيه ظالمًا وخبر إن محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره إن الذين كفروا ويصدّون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم، وكل من ارتكب فيه ذنبًا فهو كذلك عن ابن مسعود الهمة في الحرم تكتب ذنبًا.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾.

واذكر حين جعلنا **﴿لإبراهيم مكان البيت﴾** مباءة أي: مرجعًا يرجع إليه للعمارة والعبادة رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان، وكان من ياقوتة حمراء فاعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها يقال: لها الخجوج كنست ما حوله فبناه على أسه القديم، وإن هي المفسرة.

فإن قُلْتَ: كيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيرًا للتبوئة؟ **قُلْتُ:** كانت التبوئة مقصودة من أجل العبادة، فكأنه قيل: تعبدنا إبراهيم قلنا له: **﴿لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي﴾** من الأصنام والأوثان والأقذار أن تطرح حوله، وقرئ يشرك بالياء على الغيبة.

وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾.

﴿وأذن في الناس﴾ ناد فيهم وقرأ ابن محيصن وآذن والنداء بالحج أن يقول: حجّوا وعليكم بالحج وروي أنه صعد أبا قبيس فقال: يا أيها الناس حجوا بيت ربكم[3] وعن الحسن أنه خطاب لرسول الله ﷺ، أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع[4] **﴿رجالاً﴾** مشاة جمع راجل كقائم وقيام وقرئ رجالاً بضم الراء مخفف الجيم، ومثقله ورجالي كعجالي عن ابن عباس **﴿وعلى كل ضامر﴾** حال معطوفة على حال كأنه قال: رجالاً وركبانًا **﴿يأتين﴾** صفة لكل ضامر لأنه في معنى الجمع وقرئ يأتون صفة

---

(1) سورة الحج، الآية: 40.

(2) رواه الطبري في تفسيره، وأبو الوليد الأزرقي في تاريخ مكة، زيادي 2/381.

(3) الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 2/381.

(4) رواه الطبري في تفسيره، الزيلعي 2/381.

للرجال والركبان والعميق البعيد، وقرأ ابن مسعود معيق يقال: بئر بعيدة العمق والمعق.

لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾.

نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات، وعن أبي حنيفة رحمه الله أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج فلما حجّ فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص، وكنى عن النحر والذبح بذكر اسم الله لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا، أو ذبحوا وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرّب به إلى أن يذكر اسمه، وقد حسن الكلام تحسيناً بيناً أن جمع بين قوله: ﴿ليذكروا اسم الله﴾ وقوله: ﴿على ما رزقهم﴾ ولو قيل: ليذبحوا في أيام معلومات بهيمة الأنعام لم تر شيئاً من ذلك الحسن والروعة، الأيام المعلومات أيام العشر عند أبي حنيفة وهو قول: الحسن وقتادة وعند صاحبيه أيام النحر البهيمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر فبينت بالأنعام، وهي الإبل والبقر والضأن والمعز. الأمر بالأكل منها أمر إباحة لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من نسائكهم، ويجوز أن يكون ندبًا لما فيه من مساواة الفقراء ومواساتهم ومن استعمال التواضع، ومن ثمة استحب الفقهاء أن يأكل الموسع من أضحيته مقدار الثلث، وعن ابن مسعود أنه بعث يهدي وقال: فيه إذا نحرته فكل وتصدّق، وابعث منه إلى عتبة[1] يعني: ابنه وفي الحديث كلوا وادّخروا، وائتجروا[2] ﴿البائس﴾ الذي أصابه بؤس أي: شدة. و ﴿الفقير﴾ الذي أضعفه الإعسار.

ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾.

قضاء التفث: قص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد، والتفث الوسخ فالمراد قضاء إزالة التفث، وقرئ وليوفوا بتشديد الفاء ﴿نذورهم﴾ مواجب حجهم، أو ما عسى ينذرونه من أعمال البر في حجهم ﴿وليطوّفوا﴾ طواف الإفاضة، وهو طواف الزيارة الذي هو من أركان الحج ويقع به تمام التحلل، وقيل: طواف الصدر وهو طواف الوداع ﴿العتيق﴾ القديم لأنه أول بيت وضع للناس عن الحسن وعن قتادة أعتق من الجبابرة كم من جبار سار إليه ليهدمه، فمنعه الله وعن مجاهد لم يملك قط وعنه أعتق من الغرق وقيل: بيت كريم من قولهم: عتاق الخيل والطير.

فإن قُلْتَ: قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع! قُلْتُ: ما قصد التسلط على البيت وإنما تحصن به ابن الزبير، فاحتال لإخراجه ثم بناه ولما قصد التسلط عليه أبرهة فعل به ما فعل.

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾.

﴿ذلك﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر والشأن ذلك كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا والحرمة ما لا يحل هتكه، وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها فيحتمل أن يكون عاماً في جميع تكاليفه، ويحتمل أن يكون خاصاً فيما يتعلق بالحج وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس الكعبة الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمحرم حتى يحل ﴿فهو خير له﴾ أي: فالتعظيم خير له ومعنى التعظيم: العلم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها، المتلو لا يستثنى من الأنعام ولكن المعنى ﴿إلاّ ما يتلى عليكم﴾ آية تحريمه وذلك قوله: في سورة المائدة ﴿حرمت عليكم الميتة والدم﴾ والمعنى أنّ الله قد أحل لكم الأنعام كلها إلا ما استثناه في كتابه فحافظوا على حدوده وإياكم أن تحرموا مما أحلّ شيئاً كتحريم عبدة الأوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك، وأن تحلوا مما حرم الله كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك، لما حث على تعظيم حرماته وأحمد من يعظمها أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور؛ لأنّ توحيد الله ونفي الشركاء عنه وصدق القول أعظم الحرمات وأسبقها خطوًا وجمع الشرك، وقول الزور في قرآن واحد وذلك أنّ الشرك من باب الزور لأنّ المشرك زاعم أنّ الوثن تحق له العبادة، فكأنه قال: فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا شيئاً منه لتماديه في القبح، والسماجة وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان، وسمى الأوثان رجسًا وكذلك الخمر والميسر والأزلام على طريق التشبيه يعني: أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة، ونبّه على هذا المعنى بقوله: ﴿رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾[3] جعل العلة في اجتنابه أنه رجس والرجس مجتنب ﴿من الأوثان﴾ بيان للرجس وتمييز له كقولك: عندي عشرون من الدراهم لأنّ الرجس منهم يتناول غير شيء كأنه قيل: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. والزور من الزور والازورار وهو كما أنّ الإفك من إفكه إذا صرفه، وقيل: قول

---

(1) الطبراني في معجمه.

(2) أخرجه مسلم في الأضاحي، باب: ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي، (حديث رقم: 28)، وأبو داود في كتاب: الأضاحي، باب: = في حبس لحوم الأضاحي، (الحديث رقم: 2812)، والنسائي في الضحايا، باب: الأخبار من الأضاحي، (حديث: 4443).

(3) سورة المائدة، الآية: 90.

الزور قولهم: هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افترائهم وقيل: شهادة الزور عن النبي ﷺ أنّه صلى الصبح فلما سلم قام قائماً، واستقبل الناس بوجهه وقال: عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عدلت شهادة الزور الإشراك بالله، وتلا هذه الآية[1] وقيل الكذب والبهتان وقيل: قول أهل الجاهلية في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلاّ شريك هو لك تملكه وما ملك.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق فإن كان تشبيهًا مركبًا فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكًا ليس بعده نهاية بأن صور حاله بصورة حال من خرّ من السماء، فاختطفته الطير فتفرق مزعًا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة، وإن كان مفرقًا فقد شبّه الإيمان في علوه بالسماء والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوّح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة[2]، وقرئ فتخطفه بكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما وهي قراءة الحسن وأصلها تختطفه، وقرئ الرياح.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾.

تعظيم الشعائر وهي الهدايا لأنها من معالم الحج أن يختارها عظام الأجرام حساناً سماناً غالية الأثمان، ويترك المكاس في شرائها فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون المكاس فيهنّ الهدى والأضحية والرقبة، وروى ابن عمر عن أبيه رضي الله عنهما أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار، فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بدنًا، فنهاه عن ذلك وقال: بل أهدها[3] وأهدى رسول الله ﷺ مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب[4]، وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطي، فيتصدق بلحومها وبجلالها[5] ويعتقد أن طاعة الله في التقرّب بها، وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد أن يقام به، ويسارع فيه ﴿فإنها من تقوى القلوب﴾ أي: فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى من ليرتبط به، وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى أن تنحر، ويتصدق بلحومها ويؤكل منها، و ﴿ثم﴾ التراخي في الوقت فاستعيرت للتراخي في الأحوال، والمعنى: أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم، وإنما يعتد الله بالمنافع الدينية، قال سبحانه: ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾[6] وأعظم هذه المنافع وأبعدها شوطاً في النفع ﴿محلها إلى البيت﴾ أي: وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها في الحرم منتهية إلى البيت، كقوله: ﴿هديًا بالغ الكعبة﴾[7] والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت لأنّ الحرم هو حريم البيت، ومثل هذا في الاتساع قولك: بلغنا البلد وإنما شارفتموه، واتصل مسيركم بحدوده وقيل: المراد بالشعائر المناسك كلها ومحلها إلى البيت العتيق يأباه.

---

(1) أخرجه أحمد في المسند 4/321، وأبو داود في كتاب: الأقضية، باب: في شهادة الزور، (الحديث رقم: 3599)، والترمذي في كتاب: الشهادات، باب: ما جاء في شهادة الزور، (الحديث رقم: 2300).

(2) قال أحمد: أما على تقدير أن يكون مفرقاً، فيحتاج تأويل تشبيه المشرك بالهاوي من السماء إلى التنبيه على أحد أمرين، إما أن يكون الإشراك المراد ردته، فإنه حينئذ كمن علا إلى السماء بإيمانه، ثم هبط بارتداده، وإما أن يكون الإشراك أصلياً، فيكون قد عد تمكن المشرك من الإيمان ومن العلو به، ثم عدوله عنه اختياراً بمنزلة من علا إلى السماء، ثم هبط كما قال تعالى: ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ فعدهم مخرجين من النور وما دخلوه قط، ولكن كانوا متمكنين منه، وقد مضى تقرير هذا المعنى بأبسط من هذا، وفي تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر بالطير المختطفة، وفي تشبيه تطويح الشيطان بالهوى مع الريح في مكان سحيق نظر، لأنّ الأمرين ذكرا في سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين، فإذا جعل الأوّل مثلاً لاختلاف الأهواء والأفكار، والثاني مثلاً لنزغ الشيطان، فقد جعلهما شيئاً واحداً؛ لأن توزع الأفكار واختلاف الأهواء مضاف إلى نزغ الشيطان، فلا يتحقق التقسيم المقصود، والذي يظهر في تقرير التشبيهين غير ذلك، فنقول: لما انقسمت حال الكافر إلى قسمين لا مزيد عليهما الأول منهما المتذبذب، = والمتمادي على الشك، وعدم التصميم على ضلالة واحدة، فهذا القسم من المشركين مشبه بمن اختطفه الطير، وتوزعته فلا يستولي طائر على مزعة منه، إلا انتهبها منه آخر، وذلك حال المذبذب لا يلوح له خيال، إلا اتبعه ونزل عما كان عليه، والثاني مشرك مصمم على معتقد باطل لو نشر بالمناشير لم يكع، ولم يرجع لا سبيل إلى تشكيكه، ولا مطمع في نقله عما هو عليه، فهو فرح مبتهج لضلالته، فهذا مشبه في إقراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل، فاستقر فيه، ونظير تشبيهه بالاستقرار في الوادي السحيق الذي هو أبعد الأخباء عن السماء. وصف ضلاله بالبعد في قوله تعالى: ﴿أولئك في ضلال بعيد﴾ ﴿وضلوا ضلالاً بعيداً﴾ أي: صمموا على ضلالهم فبعد رجوعهم إلى الحق، فهذا تحقيق القسمين والله أعلم.

(3) تقدم تخريجه سابقاً.

(4) كشف الأستار، كتاب: الحج، باب: ما جاء في الهدى، (الحديث رقم: 1104).

وأخرجه نحوه أبو داود في سننه، كتاب: الحج.

(5) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الحج، باب: العمل في الهدى، حيث يساق (الحديث رقم: 146).

(6) سورة الأنفال، الآية: 67.

(7) سورة المائدة، الآية: 95.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾.

شرع الله لكل أمة أن ينسكوا له أي: يذبحوا لوجهه على وجه التقرّب، وجعل العلة في ذلك أن يذكر اسمه تقدّست أسماؤه على النسائك، وقرئ ﴿منسكاً﴾ بفتح السين وكسرها وهو مصدر بمعنى: النسك والمكسور يكون بمعنى: الموضع ﴿فله أسلموا﴾ أي: أخلصوا له الذكر خاصة واجعلوه لوجهه سالماً، أي: خالصاً لا تشوبوه بإشراك. المخبتون المتواضعون الخاشعون من الخبت وهو المطمئن من الأرض، وقيل: هم الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا.

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾.

وقرأ الحسن ﴿والمقيمي الصلاة﴾ بالنصب على تقدير النون، وقرأ ابن مسعود والمقيمين الصلاة على الأصل.

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿البدن﴾ جمع بدنة سميت لعظم بدنها وهي الإبل خاصة، ولأنّ رسول الله ﷺ ألحق البقر بالإبل حين قال: البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة[1] فجعل البقر في حكم الإبل صارت البدنة في الشريعة متناولة للجنسين عند أبي حنيفة، وأصحابه وإلا فالبدن هي الإبل وعليه تدل الآية، وقرأ الحسن والبدن بضمتين كثمر في جمع ثمرة وابن أبي إسحٰق بالضمتين، وتشديد النون على لفظ الوقف، وقرئ بالنصب والرفع كقوله: ﴿والقمر قدرناه﴾[2] ﴿من شعائر الله﴾ أي: من إعلام الشريعة التي شرعها الله وإضافتها إلى اسمه تعظيم لها ﴿لكم فيها خير﴾ كقوله: ﴿لكم فيها منافع﴾[3] ومن شأن الحاج أن يحرص على شيء فيه خير، ومنافع بشهادة الله عن بعض السلف أنه لم يملك إلا تسعة دنانير، فاشترى بها بدنة فقيل له: في ذلك فقال: سمعت ربي يقول: ﴿لكم فيها خير﴾ وعن ابن عباس دنيا وآخرة وعن إبراهيم من احتاج إلى ظهرها ركب ومن احتاج إلى لبنها شرب، وذكر اسم الله أن يقول: عند النحر الله أكبر لا إله إلاّ الله والله أكبر اللهم منك وإليك، ﴿صوافّ﴾ قائمات قد صففن أيديهنّ وأرجلهنّ، وقرئ صوافن من صفون الفرس وهو أن يقوم على ثلاث وينصب الرابعة على طرف سنبكه لأن البدنة تعقل إحدى يديها، فتقوم على ثلاث، وقرئ صوافي أي: خوالص لوجه الله وعن عمرو بن عبيد صوافنا بالتنوين عوضاً من حرف الإطلاق عند الوقف، وعن بعضهم صواف نحو مثل العرب أعط القوس باريها بسكون الياء وجوب الجنوب، وقوعها على الأرض من وجب الحائط وجبة إذا سقط، ووجبت الشمس وجبة غربت والمعنى: فإذا وجبت جنوبها وسكنت نسائسها حل لكم الأكل منها والإطعام ﴿القانع﴾ السائل من قنعت إليه، وكنعت إذا خضعت له وسألته قنوعاً ﴿والمعتر﴾ المعترض بغير سؤال أو القانع الراضي بما عنده، وبما يعطي من غير سؤال من قنعت قنعًا وقناعة والمعتر المعترض بسؤال، وقرأ الحسن والمعتري وعرّه وعراه واعتراه واعتره بمعنى، وقرأ أبو رجاء القنع وهو الراضي لا غير يقال: قنع فهو قنع وقانع.

من الله على عباده واستحمد إليهم بأن سخّر لهم البدن مثل التسخير الذي رأوا، وعلموا يأخذونها منقادة للأخذ طيعة فيعقلونها ويحبسونها صافة قوائمها، ثم يطعنون في لبانها ولولا تسخير الله لم تطق ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرماً، وأقل قوّة وكفى بما يتأبد من الإبل شاهداً وعبرة.

لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾.

أي: لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهراقة بالنحر، والمراد أصحاب اللحوم والدماء والمعنى: لن يرضى المضحون والمقرّبون ربهم إلاّ بمراعاة النية والإخلاص، والاحتفاظ بشروط التقوى في حل ما قرب به وغير ذلك من المحافظات الشرعية وأوامر الورع، فإذا لم يراعوا ذلك لم تغن عنهم التضحية والتقريب وإن كثر ذلك منهم، وقرئ لن تنال الله ولكن تناله بالتاء والياء وقيل: كان أهل الجاهلية إذا نحروا البدن نضحوا له ماء حول البيت ولطخوه بالدم، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت، كرّر تذكير النعمة بالتسخير، ثم قال: لتشكروا الله على هدايته إياكم لإعلام دينه ومناسك حجه بأن تكبروا وتهللوا، فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر وعدى تعديته.

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾.

خصّ المؤمنين بدفعه عنهم ونصرته لهم كما قال: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا﴾[4] وقال: ﴿إنهم لهم

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: الإشراك في الهدي، (الحديث رقم: 350 ـ 1318)، وأبو داود في السنن، كتاب: الضحايا، باب: في البقر والجزور عن كم تجزئ؟ (الحديث رقم: 2809)، وأخرج الحديث: «الجزور عن سبعة» (الحديث رقم: 2808)، والترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في الإشراك في البدنة والبقرة، (الحديث = رقم: 904)، والنسائي في كتاب: الضحايا، باب: ما تجزئ عنه البقرة في الضحايا، (الحديث رقم: 4394).

(2) سورة يٰس، الآية: 39.

(3) سورة الحج، الآية: 33.

(4) سورة غافر، الآية: 51.

المنصورون﴾[1] وقال: ﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب﴾[2] وجعل العلة في ذلك أنه لا يحب أضدادهم وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويغمطونها، ومن قرأ يدافع فمعناه يبالغ في الدفع عنهم كما يبالغ من يغالب فيه لأنّ فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾.

﴿أذن﴾ و﴿يقاتلون﴾ قرئا على لفظ المبنى للفاعل والمفعول جميعاً والمعنى: أذن لهم في القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه ﴿بأنهم ظُلِمُوا﴾ أي: بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله ﷺ كان مشركوا مكة يؤذونهم أذى شديدًا، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه، فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر[3] فأنزلت هذه الآية وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية وقيل: نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن لهم في مقاتلتهم، والأخبار بكونه قادراً على نصرهم عدّة منه بالنصر واردة على سنن كلام الجبابرة.

ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾.

وما مرّ من دفعه عن الذين آمنوا مؤذن بمثل هذه العدّة أيضاً ﴿أن يقولوا﴾ في محل الجرّ على الإبدال من حق أي: بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار، والتمكين لا موجب الإخراج والتسيير ومثله ﴿هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله﴾[4]، دفع الله بعض الناس ببعض إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة، ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم، وعلى متعبداتهم فهدموها ولم يتركوا للنصارى بيعاً ولا لرهبانهم صوامع ولا لليهود صلوات ولا للمسلمين مساجد، أو لغلب المشركون من أمّة محمد ﷺ على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين، وقرئ دفاع ولهدمت بالتخفيف وسميت الكنيسة صلاة لأنه يصلي فيها، وقيل: هي كلمة معربة أصلها بالعبرانية صلوثا ﴿من ينصره﴾ أي: ينصر دينه وأولياءه.

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾.

هو أخبار من الله عز وجل بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين رضي الله عنهم أن مكّنهم في الأرض، وبسط لهم في الدنيا وكيف يقومون بأمر الدين وعن عثمان رضي الله عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد أنّ الله قد أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا، وقالوا: فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين لأنّ الله لم يعط التمكين، ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين لاحظ في ذلك للأنصار والطلقاء وعن الحسن هم أمّة محمد ﷺ، وقيل: الذين منصوب بدل من قوله: من ينصره والظاهر أنه مجرور تابع للذين أخرجوا ﴿ولله عاقبة الأمور﴾ أي: مرجعها إلى حكمه وتقديره، وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم.

يقول لرسول الله ﷺ: تسلية له لست بأوحدي في التكذيب فقد كذب الرسل قبلك أقوامهم، وكفاك بهم أسوة.

وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾.

فإن قُلْتَ: لم قيل ﴿وكذب موسى﴾ ولم يقل وقوم موسى! **قُلْتُ:** لأنّ موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل وإنما كذبه غير قومه، وهم القبط وفيه شيء آخر كأنه قيل: بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم وكذب موسى أيضًا مع وضوح آياته[5] وعظم معجزاته فما ظنك بغيره، النكير بمعنى: الإنكار والتغيير حيث أبدلهم بالنعمة محنة وبالحياة هلاكًا وبالعمارة خرابًا.

فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾.

كل مرتفع أظلك من سقف بيت، أو خيمة، أو ظلة، أو كرم فهو عرش، والخاوي الساقط من خوى النجم إذا سقط أو الخالي من خوى المنزل إذا خلا من أهله، وخوى بطن الحامل وقوله: ﴿على عروشها﴾ لا يخلو من أن يتعلق بخاوية، فيكون المعنى: أنها ساقطة على سقوفها أي: خرّت سقوفها على الأرض، ثم تهدّمت حيطانها فسقطت فوق السقوف، أو أنها ساقطة أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها، وإمّا أن يكون خبرًا بعد خبر كأنه قيل: هي

---

(1) سورة الصافات، الآية: 172.
(2) سورة الصف، الآية: 13.
(3) قال الزيلعي غريب جداً. زيلعي 2/388.
(4) سورة المائدة، الآية: 59.
(5) قال أحمد: ويحتمل عندي والله أعلم أنه لما صدر الكلام بحكاية= = تكذيبهم ثم عدد أصناف المكذبين وطوائفهم، ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام حسن تكريره ليلي قوله: ﴿فأمليت للكافرين﴾ فيتصل المسبب بالسبب كما قال في آية قّ بعد تعديدهم ﴿كل كذب الرسل فحق وعيد﴾ فربط العقاب والوعيد وصلهما بالتكذيب بعد أن جدّد نكره والله أعلم.

خالية وهي على عروشها أي: قائمة مطلة على عروشها على معنى: أنّ السقوف سقطت إلى الأرض فصارت في قرار الحيطان، وبقيت الحيطان مائلة فهي مشرفة على السقوف الساقطة.

فإن قُلْتَ: ما محل الجملتين من الإعراب أعني وهي ظالمة فهي خاوية؟ **قُلْتُ:** الأولى في محل النصب على الحال والثانية لا محلّ لها لأنها معطوفة على أهلكناها، وهذا الفعل ليس له محل قرأ الحسن معطلة من أعطله بمعنى عطله، ومعنى المعطلة: أنها عامرة فيها الماء، ومعها آلات الاستقاء إلا أنها عطلت أي: تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها، والمشيد المجصص أو المرفوع البنيان، والمعنى: كم قرية أهلكنا وكم بئر عطلنا عن سقاتها وقصر مشيدًا خليناه عن ساكنيه، فترك ذلك لدلالة معطلة عليه وفي هذا دليل على أنّ على عروشها بمعنى: مع أوجه روي أنّ هذه بئر نزل عليها صالح عليه السلام مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله من العذاب، وهي بحضرموت وإنما سميت بذلك لأنّ صالحًا حين حضرها مات وثمة بلدة عند البئر اسمها حاضوراء بناها قوم صالح، وأمّروا عليهم جلهس بن جلاس وأقاموا بها زمانًا ثم كفروا، وعبدوا صنمًا وأرسل الله إليهم حنظلة بن صفوان نبيًا، فقتلوه فأهلكهم الله وعطل بئرهم وخرّب قصورهم يحتمل أنهم لم يسافروا.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾.

فحثوا على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا وأن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا، فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا وقرئ ﴿فيكون لهم قلوب﴾ بالياء أي: يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ويسمعون ما يجب سماعه من الوحي ﴿فإنها﴾ الضمير ضمير الشأن، والقصة يجيء مذكرًا ومؤنثًا وفي قراءة ابن مسعود، فإنه ويجوز أن يكون ضميرًا مبهمًا يفسره ﴿الأبصار﴾ وفي تعمى ضمير راجع إليه والمعنى: أنّ أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها وإنما العمى بقلوبهم أو لا يعتدّ بعمى الأبصار، فكأنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب.

فإن قُلْتَ: أي: فائدة في ذكر الصدور؟ **قُلْتُ:** الذي قد تعورف واعتقد أنّ العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب استعارة ومثل، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة، ونفيه عن الأبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين، وفضل تعريف ليتقرّر أنّ مكان العمى هو القلوب لا الأبصار كما تقول: ليس المضاء للسيف؛ ولكنه للسانك الذي بين فكيك فقولك: الذي بين فكيك تقرير لما ادّعيته للسانه، وتثبيت لأنّ محلّ المضاء هو هو لا غير وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف، وأثبته للسانك فلتة ولا سهوًا مني ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمدًا.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾.

أنكر استعجالهم بالمتوعد به من العذاب العاجل أو الآجل كأنه قال: ولم يستعجلون به كأنهم يجوّزون الفوت، وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف والله عز وعلا لا يخلف الميعاد وما وعده ليصيبنهم، ولو بعد حين[1]. وهو سبحانه حليم لا يعجل ومن حلمه ووقاره واستقصاره المدد الطوال أنّ يومًا واحدًا عنده كألف سنة عندكم، وقيل: معناه كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنيكم لأنّ أيام الشدائد مستطالة، أو كأن ذلك اليوم الواحد لشدّة عذابه كأنه سنة من سني العذاب وقيل: ولن يخلف الله وعده في النظرة والإمهال، وقرئ تعدون بالتاء والياء.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾.

ثم قال: وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً، ثم أخذتهم بالعذاب والمرجع إليّ وإلى حكمي.

فإن قُلْتَ: لم كانت الأولى معطوفة بالفاء وهذه بالواو! **قُلْتُ:** الأولى وقعت بدلاً عن قوله: ﴿فكيف كان نكير﴾ وأمّا هذه فحكمها حكم ما تقدّمها من الجملتين المعطوفتين بالواو أعني قوله: ﴿ولن يخلف الله وعده وإنّ يوماً عند ربك كألف سنة﴾ يقال: سعيت في أمر فلان إذا أصلحه، أو أفسده بسعيه وعاجزه سابقه لأنّ كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به فإذا سبقه قيل: أعجزه وعجزه والمعنى: سعوا في معناها بالفساد من الطعن فيها حيث سموها سحراً وشعراً وأساطير ومن تثبيط الناس عنها سابقين، أو مسابقين في زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم!.

فإن قُلْتَ: كان القياس أن يقال: إنما أنا لكم بشير ونذير لذكر الفريقين بعده! **قُلْتُ:** الحديث مسوق إلى المشركين و﴿يا أيها الناس﴾ نداء لهم، وهم الذين قيل: فيهم ﴿أفلم

---

(1) قال أحمد: الوقار المقرون بالحلم يفهم لغة السكون، وطمأنينة الأعضاء عند المزعجات، والأناة والتؤدة، ونحو ذلك مما لا يطلق على الله تعالى إلا بتوقيف، وأما الوقار في قوله تعالى: ﴿ما لكم= = لا ترجون لله وقارا﴾ فقد فسر بالعظمة، فليس من هذا، وعلى الجملة، فهو موقوف على ثبت في النقل.

يسيروا في الأرض﴾[1] ووصفوا بالاستعجال وإنما اقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾.

﴿من رسول ولا نبي﴾ دليل بين على تغاير الرسول والنبي وعن النبي ﷺ أنه سئل عن الأنبياء، فقال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا قيل: فكم الرسل منهم قال: ثلثمائة وثلاثة عشر جمًا غفيرًا»[2] والفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبيّ غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله والسبب في نزول هذه الآية أنّ رسول الله ﷺ لما أعرض عنه قومه، وشاقوه وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به تمنى لفرط ضجره من إعراضهم ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم لعله يتخذ ذلك طريقًا إلى استمالتهم، واستنزالهم عن غيهم وعنادهم فاستمرّ به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة والنجم وهو في نادي قومه وذلك التمنى في نفسه فأخذ يقرؤها فلما بلغ قوله: **﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾**[3] **﴿ألقى الشيطان في أمنيته﴾** التي تمناها أي: وسوس إليه بما شيعها به فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى أن قال: «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهنّ لترتجي»[4]، وروى الغرانقة ولم يفطن له حتى أدركته العصمة فتنبه عليه وقيل: نبهه جبريل عليه السلام، أو تكلم الشيطان بذلك فأسمعه الناس فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي وطابت نفوسهم، وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من الله وابتلاء زاد المنافقون به شكًا وظلمة والمؤمنون نورًا وإيقانًا والمعنى: أن الرسل والأنبياء من قبلك كانت هجيراهم كذلك إذا تمنوا مثل ما تمنيت مكن الله الشيطان ليلقى في أمانيهم مثل ما ألقى في أمنيتك إرادة امتحان من حولهم، والله سبحانه له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن وأنواع الفتن ليضاعف ثواب الثابتين، ويزيد في عقاب المذبذبين وقيل: تمنى قرأ وأنشد

تمنى كتاب الله أوّل ليلة … تمنى داود الزبور على رسل

وأمنيته قراءته وقيل: تلك الغرانيق إشارة إلى الملائكة أي: هم الشفعاء لا الأصنام **﴿فينسخ الله ما يلقى الشيطان﴾** أي: يذهب به ويبطله **﴿ثم يحكم الله آياته﴾** أي: يثبتها.

لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾.

والذين **﴿في قلوبهم مرض﴾** المنافقون والشاكون **﴿والقاسية قلوبهم﴾** المشركون المكذبون **﴿وإنّ الظالمين﴾** يريد وإن هؤلاء المنافقين والمشركين وأصله وإنهم، فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم.

وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾.

﴿أنه الحق من ربك﴾ أي: ليعلموا أن تمكين الشيطان من الإلقاء هو الحق من ربك والحكمة **﴿وإنّ الله لهاد الذين آمنوا إلى﴾** أن يتأوّلوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة، ويطلبوا لما أشكل منه المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة والقوانين الممهدة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة ولا تزل أقدامهم، وقرئ **﴿لهاد الذين آمنوا﴾** بالتنوين.

وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾.

الضمير في **﴿مرية منه﴾** للقرآن أو للرسول ﷺ، اليوم العقيم يوم بدر وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم لأنّ أولاد النساء يقتلون فيه، فيصرن كأنهنّ عقم لم يلدن أو لأنّ المقاتلين يقال لهم: أبناء الحرب فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز وقيل: هو الذي لا خير فيه يقال: ريح عقيم إذا لم تنشئ مطرًا ولم تلقح شجرًا وقيل: لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة عليهم السلام فيه وعن الضحاك أنه يوم القيامة، وأن المراد بالساعة مقدّماته ويجوز أن يراد بالساعة وبيوم عقيم يوم القيامة وكأنه قيل: حتى تأتيهم الساعة، أو يأتيهم عذابها فوضع يوم عقيم موضع الضمير.

ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾.

فإن قُلْتَ: التنوين في **﴿يومئذٍ﴾** عن أي: جملة ينوب! **قُلْتُ:** تقديره الملك يوم يؤمنون، أو يوم تزول مريتهم.

لقوله: **﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة﴾**.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾.

لما جمعتهم المهاجرة في سبيل الله سوّى بينهم في

---

(1) سورة فاطر، الآية: 26.

(2) سورة الحج، الآية: 20.

(3) أخرجه أحمد في المسند، 5/178.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة النجم، باب: «فاسجدوا لله واعبدوا» (الحديث: 4862).

الموعد وأن يعطي من مات منهم مثل ما يعطى من قتل تفضلاً منه وإحسانًا.

لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾.

والله عليم بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم ﴿حليم﴾ عن تفريط المفرط منهم بفضله، وكرمه روى أن طوائف من أصحاب رسول الله ﷺ، ورضي عنهم قالوا: يا نبي الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك، فأنزل الله هاتين الآيتين.

۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾.

تسمية الابتداء بالجزاء لملابسته له من حيث أنه سبب وذاك مسبب عنه كما يحملون النظير على النظير والنقيض على النقيض للملابسة.

فإن قُلْتَ: كيف طابق ذكر العفوّ الغفور هذا الموضع؟ **قُلْتُ:** المعاقب مبعوث من جهة الله عزّ وجلّ على الإخلال بالعقاب، والعفو عن الجاني على طريق التنزيه لا التحريم ومندوب إليه ومستوجب عند الله المدح إن آثر ما ندب إليه وسلك سبيل التنزيه، فحين لم يؤثر ذلك وانتصر وعاقب ولم ينظر في قوله تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾[1] ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾[2] ﴿ولمن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور﴾[3]، ﴿فإنّ الله لعفو غفور﴾ أي: لا يلومه على ترك ما بعثه عليه وهو ضامن لنصره في كرته الثانية من إخلاله بالعفو وانتقامه من الباغي عليه، ويجوز أن يضمن له النصر على الباغي ويعرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو ويلوح به بذكر هاتين الصفتين أو دلّ بذكر العفو، والمغفرة على أنه قادر على العقوبة لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده ﴿ذلك﴾ أي: ذلك النصر بسبب أنه قادر.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾.

ومن آيات قدرته البالغة أنه ﴿**يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل**﴾ أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما، فلا يخفى عليه ما يجرى فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والإنصاف وأنه ﴿سميع﴾ لما يقولون ﴿بصير﴾ بما يفعلون.

فإن قُلْتَ: ما معنى إيلاج أحد الملوين في الآخر؟ **قُلْتُ:** تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذاك بغيبوبة الشمس وضياء ذاك في مكان ظلمة هذا بطلوعها كما يضيء السرب بالسراج ويظلم بفقده وقيل: هو زيادته في أحدهما ما ينقص من الآخر من الساعات.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾.

وقرئ ﴿تدعون﴾ بالتاء والياء وقرأ اليماني: ﴿وأنّ ما يدعون﴾ بلفظ لمبنى للمفعول والواو راجعة إلى ما لأنه في معنى الآلهة أي: ذلك الوصف يخلق الليل والنهار والإحاطة بما يجرى فيهما وإدراك كل قول: وفعل بسبب أنه الله الحق الثابت إلهيته وإن كل ما يدعى إلهًا دونه باطل الدعوة وأنه لا شيء أعلى منه شأنًا وأكبر سلطانًا.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾.

قرئ ﴿مخضرة﴾ أي: ذات خضر على مفعلة كمبقلة ومسبعة.

فإن قُلْتَ: هلا قيل فأصبحت ولم صرف إلى لفظ المضارع! **قُلْتُ:** لنكته فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زمانًا بعد زمان.

كما تقول: أنعم على فلان عام كذا، فأروح وأغدو شاكرًا له ولو قلت: فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع.

فإن قُلْتَ: فما له رفع ولم ينصب جوابًا للاستفهام! **قُلْتُ:** لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض لأنّ معناه إثبات الاخضرار، فيتقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار مثاله أن تقول: لصاحبك ألم تر أني أنعمت عليك، فتشكر إن نصبته فأنت ناف لشكره شاك تفريطه فيه وإن رفعته فأنت مثبت للشكر وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب، وتوقير أهله ﴿لطيف﴾ وأصل علمه أو فضله إلى كل شيء.

﴿خبير﴾ بمصالح الخلق ومنافعهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾.

﴿**ما في الأرض**﴾ من البهائم مذللة للركوب في البر ومن المراكب جارية في البحر وغير ذلك من سائر المسخرات، وقرئ ﴿**والفلك**﴾ بالرفع على الابتداء ﴿**أن تقع**﴾ كراهة أن تقع ﴿**إلا**﴾ بمشيئته.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾.

﴿**أحياكم**﴾ بعد أن كنتم جمادًا ترابًا ونطفةً وعلقةً ومضغةً ﴿**لكفور**﴾ لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم، هو نهي لرسول الله ﷺ أي: لا تلتفت إلى قولهم ولا

(1) سورة الشورى، الآية: 40.

(2) سورة البقرة، الآية: 237.

(3) سورة الشورى، الآية: 43.

تمكنهم من أن ينازعوك، أو هو زجر لهم عن التعرض لرسول الله ﷺ بالمنازعة في الدين وهم جهال لا علم عندهم وهم كفار خزاعة روي أن بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان الخزاعيين وغيرهما، قالوا: للمسلمين مالكم تاكلون ما قتلتم ولا تاكلون ما قتله الله يعنون الميتة وقال: الزجاج هو نهي له ﷺ عن منازعتهم كما تقول: لا يضاربنك فلان أي: لا تضاربه وهذا جائز في الفعلي الذي لا يكون إلا بين اثنين.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿في الأمر﴾ في أمر الدين وقيل: في أمر النسائك، وقرئ: ﴿فلا ينزعنك﴾ أي: أثبت في دينك ثباتًا لا يطمعون أن يجدبوك ليزيلوك عنه، والمراد زيادة التثبيت للنبي ﷺ بما يهيج حميته ويلهب غضبه لله ولدينه ومنه قوله: ﴿ولا يصدنك عن آيات الله ولا تكونن من المشركين﴾[1] ﴿فلا تكونن ظهيرًا للكافرين﴾[2] وهيهات أن ترتع همة رسول الله ﷺ حول ذلك الحمى، ولكنه وارد على ما قلت: لك من إرادة التهييج والإلهاب وقال الزجاج: هو من نازعته فنزعته انزعه أي: غلبته أي: لا يغلبنك في المنازعة.

فإن قُلْتَ: لم جاءت نظيرة هذه الآية معطوفة بالواو وقد نزعت عن هذه؟ قُلْتُ: لأنّ تلك وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الآي الواردة في أمر النسائك، فعطفت على أخواتها وأما هذه فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفًا.

﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

أي وإن أبوا للجاجهم إلا المجادلة بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع، فادفعهم بأن الله أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما تستحقون عليها من الجزاء، فهو مجازيكم به[3] وهذا وعيد وإنذار ولكن برفق ولين.

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿الله يحكم بينكم﴾ خطاب من الله للمؤمنين، والكافرين أي: يفصل بينكم بالثواب والعقاب ومسلاةً للنبي ﷺ مما كان يلقى منهم.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

وكيف يخفى عليه ما يعملون ومعلوم عند العلماء بالله أنه يعلم كل ما يحدث في السمٰوات والأرض، وقد كتبه في اللوح قبل حدوثه، والإحاطة بذلك وإثباته وحفظه عليه ﴿يسير﴾ لأن العالم الذات لا يتعذر عليه، ولا يمتنع تعلق بمعلوم.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾.

﴿ويعبدون﴾ ما لم يتمسكوا في صحة عبادته ببرهان سماويّ من جهة الوحي، والسمع ولا ألجأهم إليها علم ضروري ولا حملهم عليها دليل عقلي ﴿وما﴾ للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوب مذهبهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿المنكر﴾ الفظيع من التجهُّم والبسور، أو الإنكار كالمكرم بمعنى: الإكرام، وقرئ يعرف والمنكر، والسطو الوثب والبطش، قرئ ﴿النار﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كأنّ قائلاً قال: ما هو فقيل: النار أي: هو النار وبالنصب على الاختصاص وبالجرّ على البدل من شر من ذلكم من غيظكم على التالين، وسطوكم عليهم أو مما أصابكم من الكراهة، والضجر بسبب ما تلى عليكم ﴿وعدها الله﴾ استئناف كلام ويحتمل أن تكون النار مبتدأ ووعدها خبرًا وأن يكون حالا عنها إذا نصبتها أو جررتها بإضمار قد.

فإن قُلْتَ: الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلاً! قُلْتُ: قد سميت الصفة، أو القصة الرائعة الملتقاة بالاستحسان والاستغراب مثلاً تشبيهًا لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾.

قرئ ﴿تدعون﴾ بالتاء والياء و﴿يدعون﴾ مبنيًا للمفعول ﴿لن﴾ أخت لا في نفي المستقبل إلا أن لن تنفيه نفيًا مؤكدًا وتاكيده ههنا الدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل مناف لأحوالهم، كأنه قال: محال أن يخلقوا.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿ولو اجتمعوا له﴾؟ قُلْتُ: النصب على الحال كأنه قال: مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطًا عليهم اجتماعهم جميعًا لخلقه وتعاونهم عليه وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش، واستركاك عقولهم والشهادة على أنّ الشيطان قد خزمهم بخزائمه حيث وصفوا بالآلهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها صورًا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه، وأذله وأصغره وأحقره ولو

---

(1) سورة القصص، الآية: 87.

(2) سورة القصص، الآية: 86.

(3) قال أحمد: وقد تقدم مثله، وأنكرنا عليه تحميله القرآن ما لا يحتمله، = فإن الأعلم في اللغة ذو العلم الزائد المفضل على علم غيره، فكيف يفسر بما ينفي صفة العلم البتة، هب أن الأدلة العقلية لا وجود لها، والله الموفق للصواب.

اجتمعوا لذلك وتساندوا وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئاً، فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا، وقوله: ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف، ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف لأن الذباب حيوان، وهو جماد وهو غالب وذاك مغلوب وعن ابن عباس أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله.

مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾.

﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ أي: ما عرفوه حق معرفته حتى لا يسموه باسمه من هو منسلخ عن صفاته بأسرها، ولا يؤهلوه للعبادة ولا يتخذوه شريكًا له إن الله قادر غالب، فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهًا به؟

هذا رد لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر وبيان أن رسل الله على ضربين ملائكة وبشر.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾.

ثم ذكر أنه تعالى دراك للمدركات عالم بأحوال المكلفين ما مضى منها، وما غبر لا تخفى عليه منهم خافية، وإليه مرجع الأمور كلها والذي هو. بهذه الصفات لا يسأل عما يفعل وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه وتدابيره واختيار رسله.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾.

للذكر شأن ليس لغيره من الطاعات وفي هذه السورة دلالات على ذلك، فمن ثمة دعا المؤمنين أولاً إلى الصلاة التي هي ذكر خالص، ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج والغزو، ثم عمّ بالحث على سائر الخيرات وقيل: كان الناس أوّل ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود فامروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود وقيل: معنى ﴿واعبدوا ربكم﴾ اقصدوا بركوعكم، وسجودكم وجه الله. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وافعلوا الخير﴾ صلة الأرحام ومكارم الأخلاق ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي: افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح طامعون فيه غير مستيقنين، ولا تتكلوا على أعمالكم وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال قلت: يا رسول الله في سورة الحج سجدتان قال: «نعم إن لم تسجدهما، فلا تقرأهما»[1] وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فضلت سورة الحج بسجدتين، وبذلك احتج الشافعي رضي الله عنه، فرأى سجدتين في سورة الحج وأبو حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم لا يرون فيها إلا سجدة واحدة لأنهم يقولون: قرن السجود بالركوع، فدل ذلك على أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة.

وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ ۖ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾.

﴿وجاهدوا﴾ أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر عن النبي ﷺ أنه رجع من بعض غزواته فقال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[2]. ﴿في الله﴾ أي: في ذات الله ومن أجله، يقال: هو حق عالم وجد عالم أي: عالم حقًا وجدًا ومنه ﴿حق جهاده﴾.

فإن قُلْتَ: ما وجه هذه الإضافة وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه كما قال: ﴿وجاهدوا في الله﴾! **قُلْتُ:** الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص، فلما كان الجهاد مختصًا بالله من حيث أنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت إضافته إليه، ويجوز أن يتسع في الظرف كقوله: ويوم شهدناه سليمًا وعامرًا ﴿اجتباكم﴾ اختاركم لدينه ولنصرته ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ فتح باب التوبة للمجرمين وفسح بأنواع الرخص والكفارات والديات والأروش ونحوه قوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[3] وأمة محمد ﷺ هي الأمة المرحومة الموسومة بذلك في الكتب المتقدمة، نصب الملة بمضمون ما تقدّمها كأنه قيل: وسع دينكم توسعة ملة أبيكم، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه أو على الاختصاص أي: أعني بالدين ملة أبيكم كقولك: الحمد لله الحميد.

فإن قُلْتَ: لم يكن ﴿إبراهيم﴾ أبا للأمّة كلها! **قُلْتُ:** هو أبو رسول الله ﷺ، فكان أبا لأمته لأنّ أمة الرسول في حكم أولاده ﴿هو﴾ يرجع إلى الله تعالى وقيل: إلى إبراهيم ويشهد للقول الأوّل قراءة أبي بن كعب: الله سماكم ﴿من قبل وفي هذا﴾ أي: من قبل القرآن في سائر الكتب وفي القرآن أي: فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم ﴿ليكون الرسول شهيدًا عليكم﴾ أنه قد بلغكم ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾ بأنّ الرسل قد بلغتهم، وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة فاعبدوه وثقوا به، ولا تطلبوا النصرة والولاية إلا منه فهو خير مولى، وناصر عن رسول الله ﷺ

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: تفريع أبواب السجود وكم سجدة في القرآن، (الحديث: 1402)، والترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في السجدة في الحج، (الحديث: 578)، = وأحمد في المسند 4/151).

(2) قال الزيلعي غريب جدًا وذكره الثعلبي هكذا من غير سند، 2/395.

(3) = سورة البقرة، الآية: 185.

من قرأ سورة الحج أعطى من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة المؤمنون مكية

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ①﴾.

﴿قد﴾ نقيضة لما هي تثبت المتوقع ولما تنفيه ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة، وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه، الفلاح الظفر بالمراد وقيل: البقاء في الخير و﴿أفلح﴾ دخل في الفلاح كابشر دخل في البشارة ويقال: أفلحه أصاره إلى الفلاح، وعليه قراءة طلحة بن مصرف أفلح على البناء للمفعول وعنه أفلحوا على أكلوني البراغيث أو على الإبهام، والتفسير وعنه أفلح بضمة بغير واو اجتزاء بها عنها كقوله: فلو أنّ الأطبا كان حولي.

فإن قُلْتَ: ما المؤمن؟ قُلْتُ: هو في اللغة المصدق وأما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين: أحدهما أنّ كل من نطق بالشهادتين مواطئًا قلبه لسانه، فهو مؤمن والآخر انه صفة مدح لا يستحقها إلا البرّ التقيّ دون الفاسق الشقيّ[2].

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ②﴾.

الخشوع في الصلاة خشية القلب وإلباد البصر عن قتادة، وهو إلزامه موضع السجود وعن النبي ﷺ أنه كان يصلي رافعًا بصره إلى السماء، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره نحو مسجده[3] وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن أن يشدّ بصره إلى شيء، أو يحدّث نفسه بشأن من شأن الدنيا وقيل: هو جمع الهمة لها والإعراض عما سواها، ومن الخشوع أن يستعمل الآداب فيتوقى كف الثوب والعبث بجسده، وثيابه والالتفات والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والتشبيك والاختصار وتقليب الحصا. روي عن النبي ﷺ أنه أبصر رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلبه خشعت جوارحه»[4] ونظر الحسن إلى رجل يعبث بالحصا وهو يقول: اللهمّ زوّجني الحور العين، فقال: بئس الخاطب أنت تخطب وأنت تعبث.

فإن قُلْتَ: لم أضيفت الصلاة إليهم؟ قُلْتُ: لأنّ الصلاة دائرة بين المصلي والمصلى له، فالمصلي هو المنتفع بها وحده وهي عدّته وذخيرته، فهي صلاته وأمّا المصلى له فغنى متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③﴾.

﴿اللغو﴾ ما لا يعنيك من قول: أو فعل كاللعب والهزل وما توجب المروءة إلغاءه وإطراحه يعني: أنّ بهم من الجد ما يشغلهم عن الهزل، لما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل، والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④﴾.

الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى، فالعين القدر الذي يخرجه المزكى من النصاب إلى الفقير، والمعنى فعل المزكى الذي هو التزكية وهو الذي أراده الله فجعل المزكين فاعلين له، ولا يسوغ فيه غيره؛ لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل ويقال: لمحدثه فاعل تقول: للضارب فاعل الضرب، وللقاتل فاعل القتل وللمزكى فاعل التزكية، وعلى هذا الكلام كله والتحقيق فيه أنك تقول: في جميع الحوادث من فاعل هذا، فيقال: لك فاعله الله أو بعض الخلق[5] ولم يمتنع الزكاة الدالة على العين أن يتعلق بها فاعلون لخروجها من صحة أن يتناولها الفاعل، ولكن لأنّ الخلق ليسوا بفاعليها وقد أنشد لأمية ابن أبي الصلت:

المطعمون الطعام في السنة الأ زمة والفاعلون للزكوات

ويجوز أن يراد بالزكاة العين ويقدّر مضاف محذوف وهو الأداء، وحمل البيت على هذا أصحّ لأنها فيه مجموعة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥﴾.

---

(1) الثعلبي وابن مردويه والواحدي في الوسيط زيلعي... 2/396.

(2) قال أحمد: والأوّل مذهب الأشعرية، والثاني مذهب المعتزلة، والموحد الفاسق عندهم لا مؤمن ولا كافر، ولو لم يبن المعتزلة على هذا المعتقد تحريم الجنة على الموحد الفاسق بناء على انه لا يندرج في وعد المؤمنين، لكان البحث معهم لفظياً، ولكن رتبوا على ذلك أمراً عظيماً من أصول الدين وقواعده، وقد نقل القاضي عنهم في رسالة الإيمان خبطاً طويلاً، فنقل عن قدمائهم كعمرو بن عبيد وطبقته: أن الإيمان هو التصديق بالقلب، وجميع فرائض الدين فعلاً وتركاً، ونقل عن أبي الهذيل العلاف: أنّ الإيمان هو جميع فرائض الدين ونوافله، ومختصر دليل القاضي لأهل السنة أنّ الإيمان لغة هو مجرّد التصديق اتفاقاً، فوجب أن يكون كذلك= شرعاً عملاً بقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ مع سلامته عن معارضة النقل، فإنه لو كان لنبيه عليه الصلاة والسلام ولو بينه لنقل؛ لأنه مما يبتني عليه قاعدة الوعد والوعيد، ولم ينقل لأنّ النقل إما آحاد، أو تواتر إلى آخر مادته.

(3) أخرجه أبو داود في المراسيل، باب: في القراءة، (الحديث: 45).

(4) الترمذي في نوادر الأصول.

(5) قال أحمد: ويقول السني: فاعل جميعها هو الله وحده لا شريك له، ولكن إذا سئل بصيغة مشتقة من الفعل على طريقة اسم الفاعل، مثل أن يقال له: من القائم من القاعد، أجاب بمن خلق الله الفعل على يديه، وجعله محلاً له كزيد وعمرو.